البيئة السياسية والاستراتيجية قبل الحرب وانعكاساتها على الحرب ونتائجها

د.رائد نعيرات

أستاذ العلوم السياسية –جامعة النجاح الوطنية

رئيس المركز الفلسطيني للديمقراطية والدراسات

00599525422

watannai@yahoo.com

تعتبر بداية أي حرب امتدادا لعنصرين أساسيين، التغيير في المكان والتغيير في العلاقات الناظمة للفعل السياسي وفلسفته، فالتغيير الحاصل فيما يسمى الرقعة الجغرافية سواء من ناحية الحدود أو التفاعلات المكانية على اختلاف أنواعها مسببا لتطور الحالة السياسية بين طرفين وتحول الأزمة السياسية إلى حالتها الطبيعية، والتي أعلى عنوان لها هو استخدام القوة. أما العنصر الثاني والذي لا يقل أهمية عن العنصر الأول والمشكل لاستفحال الأزمة السياسية وتحولاتها الدراماتيكية فهو طبيعة العلاقات الناظمة للفعل السياسي، سواء التحالفات، أو التغيير في مستوى قوة وضعف المنظومات الموجهة للفعل السياسي، ثم العنصر الآخر وهو طبيعة الفلسفة السياسية وتغيراتها لدى كلا الطرفين والفئة الموجهة للفعل السياسي.

بناء على هذه المتغيرات تتم عملية قياس البيئة السياسية والاستراتيجية الحاضنة، والرحم الأساسي لاشتعال فتيل الحرب بين أي كيانين سياسيين، علاوة على ذلك تتم عملية قياس مستوى النجاح أو الفشل في الحرب بقدرة أطراف النزاع على تحقيق مكتسبات سياسية تغير من معادلات الخصم داخل المساحة الإستراتيجية (بمعنى أن لكل حرب أهداف استراتيجية غير معلنة، ومدى النجاح والفشل يقاس بمدى تحقق هذه الأهداف من عدمها أو مستوى التحقيق) ، وعند إذ من السهولة قياس مدى النجاح والفشل عبر الوقوف على طبيعة المتغيرات ومقدار خدمتها لأهداف الخصم أو للذات.

من الطبيعي عند دراسة الحرب على قطاع غزة أن يأخذ الدارس بعين الاعتبار، إن هذه الحرب ليست ككل الحروب، فهي ليست بحرب متكافئة بين خصمين (دولتين) ، وكذلك ليست بحرب متكافئة من ناحية الموازين، ولكن لا يمكن إغفال أن هذه الحرب تشترك مع مثيلاتها من الحروب بالأهداف، سواء لدى إسرائيل بصفتها الدولة التي أعلنت الحرب، أو لدى المقاومة بصفتها الطرف الذي لم يرضخ للمعادلات التي تريدها إسرائيل. إذا، بمعنى طبيعي أن قوى المقاومة اعتبرت أن خيار الحرب سيغير من البيئة لصالحها ويسمح بمنح المقاومة فرصة تغيير شروط اللعبة أو استحداث منهجية جديدة للتعامل.

تعتبر الحرب على قطاع غزة مختلفة عما سبقها من حروب بين إسرائيل والعالم العربي أو المقاومة الفلسطينية وذلك على عدة صعد:

1- هذه الحرب وجودية للمقاوم الفلسطيني، وعلى العكس فيما يخص الجندي الإسرائيلي.

2- هذه هي الحرب الأولى التي تقودها المقاومة الفلسطينية على الارض الفلسطينية، واعتبار المقاومة سياسة عامة للنظام السياسي في القطاع.

3- هذه الحرب الأولى التي لم تتوقف ضمن مشروع سلمي وبالتالي حرمت إسرائيل من التحكم في نتائج ومخرجات الحرب.

4- مستوى القوى الداعمة للمقاومة وتغيرها وذلك على صعيدين:

مستوى الدور الجماهيري، وثانيا دور النخب السياسية، وهذا أدى بدوره إلى تمفصل في الموقف العربي، علاوة على دخول قوى جديدة كقوة ضغط ومن أبرزها تركيا.

على هذه الأرضية ستتم المناقشة في هذه الورقة منطلقة من البيئة الاستراتيجية والسياسية الجديدة التي تشكلت قبيل الحرب، ومدى تأثيرها في أهداف الحرب لدى كلا الطرفين، مشفوعة بالمقدرة على تحليل مؤشرات النجاح والفشل، سواء للمقاومة أو للإسرائيليين.

البيئة السياسية والاستراتجية قبيل الحرب فلسطينيا:

جاءت عناصر البيئة السياسية الفلسطينية قبيل الحرب ضمن مجموعة من المتغيرات ومن أبرزها:

أولا: - جزء من النظام السياسي الفلسطيني يتبنى المقاومة في قطاع غزة. وهذا يعتبر تحـــولا ومتغيـــرا استراتيجيا في العلاقة الفلسطينية – الإسرائيلية. وذلك على عدة محاور:

المحور الأول: لأول مرة يتم تشكيل مقاومة منظمة ورسمية مدعومة بقرار سياسي ومستندة إلى سياســـة عامة، وعلى الأرض الفلسطينية.

المحور الثاني: مستوى التهديد الذي تشكله المقاومة الجديدة للإسرائيليين، حيث أن هذا النوع من التهديـــد أصبح غير محدود، علاوة على تطوره واشاراته الإستراتجية.

المحور الثالث: شرعية المقاومة فهي لم تعد عبارة عن حركة خارج الفعل السياسي، وإنما تحولت لتصبح أداة تنفيذ السياسة العامة للسلطة في قطاع غزة، وهي كذلك ممتلكة الشرعية عبر الانتخابات.

ثانيا: - الانفصال السياسي بين الضفة الغربية وقطاع غزة والعلاقات الناظمة للسياسة الفلسطينية الداخليـــة والجدليات.

ثالثا: الجدل الدائر حول مخرجات العملية السلمية والمفاوضات، طبيعتها، ومدى الاستجابة للشروط التـــي تفرضها، ومستوى مخرجاتها، بمعنى القدرة على إيجاد حل دائم.

البيئة السياسية والاستراتيجية قبيل الحرب إسرائيليا:

شهدت الحياة السياسية الاسرائيلية مجموعة من المتغيرات قبيل الحرب ومن أبرزها:

1- حرب تموز 2006 وإخفاقات الجيش الإسرائيلي في الردع، وتحقيق النتائج.

2- الضعف السياسي الرسمي نتيجة لعدم وجود الحكومة الفعلية الناظمة للعمل السياسي، فحكومة اولمرت هي حكومة تسيير أعمال.

3- الصراع والحراك الحزبي الإسرائيلي الداخلي، فكديما أو ما أطلق عليه حزب المرحلة، لم يعد يمتلك القدرة عن إعادة صناعة الذات ضمن برنامج الانسحاب أحادي الجانب، وحزب العمل يطمح لإعادة هيبته السياسية، والليكود ينتظر تحول في العلاقات باتجاه تحقيق مكاسب انتخابية جديدة.

البيئة السياسية والاستراتيجية قبيل الحرب عربيا:

1- انقسام عربي غير رسمي تجاه مكونات السياسة الفلسطينية، سواء في العلاقـة مـع السـلطة الفلسطينية أو في العلاقة مع حركة حماس في قطاع غزة.

2- عدم قدرة النظام العربي الرسمي على تخطي العقبات وتقديم بديل سياسي، يرفع مـن سـقف الفعل السياسي العربي سواء يمينا او يسارا، وأصبح يتمركز حول موضوعة المبادرة العربية للسلام 2002.

البيئة السياسية والاستراتيجية قبيل الحرب اقليميا:

تشكل المشهد السياسي الإقليمي من بروز مجموعة من القوى التي تلعب دورا خفيا في محاولة تشكيل قوة إقليمية تمكنها من لعب دور ومن أبرز هذه القوى:

1- إيران- كقوة اقليمية شيعية في المنطقة ، وفي نفس الوقت تمثل الداعم للقوى المقاومة الشيعية .

2- تركيا -وهي تمثل الموقف السني وداعم للقوى المقاومة السنية .

3- إسرائيل_ ومال تمثله من ثقل في علاقاتها وقدرتها على التحرك ضمن ما يطلـق عليـه محـور الاعتدال والارتكاز على العلاقات المميزة لها في المنطقة .

دوليا: هناك متغير أساسي دولي تشكل عشية الحرب ويتمثل في المرحلة الانتقاليـــة فـــي الادارة الأمريكية، وهذه المرحلة جاءت مشجعة لإسرائيل للقيام بالحرب من أجل تغيير بعض المعـــادلات المستقبلية وتتمثل فيما يلي:

1- استغلال الدعم اللامحدود من إدارة جورج بوش .

2- تكبيل إدارة اوباما وتوجيه بوصلتها بشكل معين.

بعد الاطلاع على أهم سمات هذه الحرب، وما رافقها من عوامل شكلت في مجملها بيئة الحـــرب، يمكـــن القول أن تلك السمات والعوامل، ساهمت في صياغة مخرجات الحرب، وهذا يتضح في الآتي:

المستوى الفلسطيني: جاء مخرجات الحرب فيما يخص الجانب الفلسطيني ووفقا للبيئة الموضحة أعـــلاه مقللة من أهمية الانجاز الذي حققته المقاومة الفلسطينية في قطاع غزة. فبالرغم من أن المقاومة الفلسطينية في هذه الجولة من المواجهة مع الاحتلال الاسرائيلي جاءت لأول مرة في إطار مؤسسات النظام السياسي الفلسطيني – الحديث هنا عن قطاع غزة- إلا أن حالة التنافر الماثلة بين قطبي الساحة السياسية الفلسطينية حرمت الكل الفلسطيني من استثمار مخرجات الحرب الميدانية لصالح القضية الفلسطينية سياسيا.

إضافة الى ذلك، فإن بدء الحرب من قبل اسرائيل على قطاع غزة وعدم انعكاس ذلـــك علـــى الموقـــف الفلسطيني من عملية التسوية ساهم بشكل ضمني في تكريس حالة الانفصـــال القائمـــة، بـــل وأظهـــر أن

اسرائيل تعادي جزء من فلسطين. صحيح أن المفاوضات تم ايقافها فلسطينيا من خلال القائمين عليها كاحتجاج على بدء الحرب، لكن هذا الموقف تبين بعد الحرب على أنه تعاطي آني ليس أكثر. فبعد أن طوت اسرائيل دفتر الحرب، وفتحت صناديق اقتراعا أعلن محود عباس استعداده للتفاوض مع أي حكومة تفرزها الانتخابات الاسرائيلية، وهذه كانت خطوة حادة باتجاه ايصال رسالة الى جميع الاطراف أن ما حصل في غزة لم يكن عاملا مؤثرا على بنية العلاقات بين السلطة الفلسطينية واسرائيل.

أما على الحرب ذاتها فقد كانت البئية الفلسطينية المتوترة عاملا قويا في إظهار الضفة الغربية كجزء متعاطف مع قطاع غزة وليس طرفا في الحرب يتعرض نصفه الاخر الى الاعتداءات الاسرائيلية، وإن كانت هذه الملاحظة جزئية، الا أن ما شهدناه من احتكاكات بين الشبان الفلسطينيين وجنود الاحتلال في الضفة كرد فعل على حرب غزة، كانت أضعف بكثير من تلك التي نشبت في غزة كرد فعل على عدوان اسرائيل على الضفة في عام 2001، وذلك نتاج الموقف الرسمي للسلطة في الضفة التي أرادت الهدوء للضفة الغربية.

المستوى الإسرائيلي: البيئة السياسية والاستراتيجية التي كانت قائمة قبيل وأثناء الحرب على قطاع غزة، أثرت على الطرف الإسرائيلي ضمن عدة محاور، وهي كالآتي:

الأول: محدودية الزمن، فقد شكل تنصيب أوباما رئيسا للولايات المتحدة الأمريكية واستلامه لمنصبه، سقفا زمنيا ضمنيا للعمليات العسكرية الإسرائيلية، وهنا باتت إسرائيل مجبرة على الانسحاب كي لا تدفع أوباما لانتقاد إسرائيل في أول أيام عمله، فيما سمي حينها بسياسة تنظيف الطاولة من أمام اوباما، حتى لـو لـم تحقق أهدافها وهذا ما حصل فعلا.

إضافة لذلك فإن سقفا زمنيا آخر كان قائما داخل إسرائيل ذاتها وهو الانتخابـات الإسـرائيلية وحملتهـا الانتخابية، التي لعبت دورا في تحديد عنصر الزمن لدى الطرف الإسرائيلي، بشكل دفـع إلـى التـدرج السريع في تنفيذ عملياته ميدانية والانتقال من مرحلة إلى أخرى دون تحقيقه لأهدافه.

المحور الثاني: بعد عام 2006 وخسارة إسرائيل لهيبة الردع نتاج حرب حزيران مـع حـزب الله، فقـد عملت إسرائيل على محاولة بناء الثقة من جديد في جيشها وقوتها العسكرية أمام مجتمعها علـى الأقـل. وفي الحرب على غزة لعبت هذه البيئة التي تشكلت منذ 2006 دفع إسرائيل أن تكون أكثـر حـذرا فـي عملياتها العسكرية، حتى لو أثر ذلك على قدرتها في تحقيق الأهداف، فالأهم كان بالنسبة لإسرائيل أن تقلل خسائرها وخاصة في صفوف الجيش، وقد استطاعت جزئيا تغيير الصورة التـي وصـم بهـا الجنـدي الإسرائيلي من حرب لبنان، على الناقل في أعين الجنود فقط.

المحور الثالث: إعادة تشكيل القوى الحزبية الإسرائيلية، قبيل الحرب هيأت الحكومة الإسرائيلية مواطنيها إلى أن التعامل مع قطاع غزة لا بد أن يكون عسكريا وقويا، فلم تجد سياسة الحصار نفعاً في إجبار حماس على الاستسلام والتراجع عن سياساتها. وهنا كان خيار الحكومة آنذاك بقيادة أولمرت شن الحرب على قطاع غزة، هذا الأمر ساهم في رسم خارطة حزبية جديدة محددها الأبرز القدرة على التعامل مع غزة وفق خيار إسرائيل الأخير.

فإذا كان خيار إسرائيل وفقا للائتلاف الحكومي السابق هو محاربة حماس، فإن المجتمع الإسرائيلي سينظر إلى الأحزاب وفق هذا المعيار وحينها سيخرج بالآتي:

- حزب كاديما انتخب لقيادة إسرائيل حين اقنع شارون جمهوره بأهمية خطة الانسحاب أحادي الجانب، وغزة الآن تمثل فشل تلك الخطة، وهنا ستؤثر الحرب سلبا لا إيجابا على كاديما.
- حزب العمل، لم تعد خيارات حزب العمل مقبولة ومنطقية في ظل التناقض القائم بين المزاج العام الإسرائيلي وبرنامج العمل السياسي.
- حزب الليكود سيكون الأقدر حسب الرؤية الإسرائيلية، ليس لكونه ليكودا، بقدر ما هو متناغم كحزب يميني مع ما هو مطلوب إسرائيليا للتعامل مع الفلسطينيين.

- إسرائيل بيتنا وبقية اليمينيين، يمثل نفس ما يمثله الليكود للإسرائيليين لكن بصورة أكثـــر حدة.

نتائج الانتخابات أكدت ذلك، فبالرغم من أن كاديما حصل على أعلى نسبة أصـــوات، إلا أن الانتخابـــات الأخيرة في إسرائيل لم تكن حزبية بقدر ما كانت برامجية، يبحث ظهر التنافس على أنـــه بـــين اليمـــين واليسار والوسط، وهنا يمكن القول أن كاديما فاز بعدد الأصوات لكن اليمين انتصر في المحصلة، وهنـــا يظهر أن البيئة السياسية التي صنعتها الأحزاب المشاركة في الائتلاف الحكومي آنـــذاك، ســـاهمت فـــي أزاحتها وإدخال أطراف يمينية بقوة إلى معادلة الحكم في إسرائيل.